مدخل إلى الأدب المقارن-سنة ثانية ليسانس-.....(د.حميدة سليوة)

المحاضرة رقم1

الأدب المقارن المصطلح والمفهوم؟

الأدب المقارن هو الترجمة الحرفية للمصطلح الفرنسيLa littérature comparée، اصطلاح فرنسي النشأة، وممن المعروف أن أبال فيلمانA. Villemain، كان الأسبق إلى استخدامه في محاضراته عام (1828) حول الأدب الفرنسي وعلاقاته بالآداب الأوروبية، وانصبت محاضراته على تأثير الكتاب الفرنسيين في ق18 على غيرهم من كتاب أوروبا، وهكذا فالأدب المقارن واحد من ابتكارات القرن التاسع عشر، الذي عرف الكثير من الدعوات المنادية بالانفتاح والخروج من إطار الأدب القومي بتأثير من الحركة الرومنسية.

ويقابله في الانجليزيةcomparative Littérature، وفي الألمانية Verleichende Literaturwissenschaft، أي علم مقارنة الأدب، ويسمى كذلك عند الألمان:« التاريخ المقارن للأدب vergleichende Literaturgeschichte-خاص بنهاية القرن التاسع عشر»[1]، حيث يبدو أن للألمان إسهام واضح بلمسة أكيدة في بلورة هذا المصطلح الذي توضح التسمية الأولى الطبيعة المنهجية لهذا المجال، أما الثانية فهي تأكيد لعلاقة الأدب المقارن بالتاريخ الأدبي.

1-المفهوم:

اجتهد الكثير من الباحثين والمنشغلين بمجال الأدب المقارن، في تحديد مفهوم واحد له، لكنهم كانوا كل مرة يقعون في اختلافات ونقاشات تجعل لكل وجهة نظر رأيها في هذا المجال، وكان من أولهم ماريو فرنسوا غويار الذي يعرفه بـ:« **تاريخ العلائق الأدبية الدولية[....] فالباحث المقارن يقف عند الحدود اللغوية والقومية ويراقب مبادلات الموضوعات والفكر والكتب، والعواطف بين أدبين أو عدة آداب، ومن ثم فإن منهجه في البحث يجب أن يتطابق مع تباين بحوثه** »[2]، فهو يجعل من الأدب المقارن جزء من التاريخ الأدبي، ومكمل له، المقارنة لا يقصد بها الموازنة بين الآداب، هي نقطة ضرورية تمكن الباحث من اكتشاف التشابهات والتأملات بين الأعمال الأدبية، يشدد هذا المفهوم على اختلاف اللغة لقيام الدراسة المقارنة، كما أنه يعنى برصد الصلات الواقعية والتاريخية بين الآداب، ويتخذ من الأدب القومي محورا له تدور حوله الدراسات المقارنة، يدرس المقارن حسب كاريه نتيجة التأثير أي أن المقارنة عنده فعل نقد، ثم إن التأثير لا يعني بالضرورة محاكاة أو تقليد قد يكون رد فعل ومعارضة.

ويختلف تعريف الأمريكي هنري ريماك، عن ما سبق فيعرفه بـ:« **دراسة الأدب خلف حدود بلد معين، دراسة العلاقات بين الأدب من جهة ومناطق أخرى من المعرفة والاعتقاد، من ذلك الفنون كالرسم والنحت والعمارة والموسيقى والفلسفة والتاريخ والعلوم الاجتماعية والديانة**»[3]، الملاحظة الأولى هي عدم اشتراط ثبوت العلاقة والتأثير، عدم ربط الأدب المقارن بالتاريخ الأدبي فهو عند ريماك وغيره من أعلام المدرسة الأمريكية مجال مستقل، والأدب المقارن بهذا المفهوم أقرب إلى النقد ونظرية الأدب من غيرها من مجالات الدراسة الأدبية، كما أن شرط اختلاف اللغة غير مذكور

---

1 - برونيل(بير)، وآخرون: ما الأدب المقارن؟، تر: حنون(عبد المجيد)، عيلان(نسيمة)، رجال(عمار)، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن، جامعة باجي مختار عنابة 2005، ص24.

2-غويار(ماريو فرنسوا): الأدب المقارن، تر:زغيب(هنري)، منشورات عويدات بيروت باريس، ط2، 1988، ص15.

3-فرنز(هورست): الادب المقارن المنهج والمنظور، تر:عبد المطلب(فؤاد)، سلسلة في النقد الأدبي، الهيئة السورية للكتاب دمشق، 2011، ص36

وهذا يجعله مستقلا عن حدود السياسية واللغة، وتوسيع مجال المقارنة لتشمل المقارنة بين الأدب من جهة والفنون والعلوم والاجتماع والديانة من جهة أخرى، وهذا التعريف نتاج مجتمع منفتح مكون من مزيج بشري وثقافي متنوع وهو المشكل للشعب الأمريكي.

ويعرفه غنيمي هلال بـ:« **يدرس مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة، وصلاتها الكثيرة المعقدة في حاضرها وماضيها، وما لهذه الصلات التاريخية من تأثير وتأثر، أيا كانت مظاهر التأثير والتأثر**»[1]، وهو قريب من التعريف الفرنسي السابق الذي يجعل من الأدب المقارن جزء من التاريخ الأدبي بتأكيده على الصلات التاريخية المرتبطة بالماضي والحاضر، ثم اشتراط اللغة المختلفة بين الآداب لتدرس مواطن التلاقي بينها، فصاحب القول يبدو متأثرا بجون ماري كاريه الذي لخص التعريف الفرنسي للأدب المقارن.

لكن مفهوم الأدب المقارن عرف تغييرا بل تطورا في الآونة الأخيرة، خاصة نهاية التسعينيات من القرن العشرين وبداية الألفية الجديدة، فهذا ***دانييل هنري باجو*** يقول:« **الأدب المقارن هو الفن المنهجي الذي يبحث في علاقات التشابه والتقارب، والتأثير، وتقريب الأدب من مجالات التعبير والمعرفة الأخرى، أو أيضا، الوقائع والنصوص الأدبية فيما بينها، المتباعدة في الزمان والمكان أو المتقاربة، شرط أن تعود إلى لغات أو ثقافات مختلفة، تشكل جزء من تراث واحد من أجل وصفها بصورة أفضل، وفهمها، وتذوقها**»[2]، ويبدو تعريفا متجاوزا للكل ما سبقه فهو لا يقصر الأدب المقارن في علاقات التأثير فقط، ويضم إليها التشابه والتقارب-موضوعات ما يسمى بالأدب العام الذي سنخصصه بالعناية لاحقا-؛ كما يقرب الأدب من مجالات تعبيرية مغايرة كالمعرفة من تاريخ وطب واقتصاد وغيرها، والفن بما فيه الموسيقى والرسم والأوبرا، فالمقارنة ليست بالضرورة بين أديبين، قد يكون أحد أطراف المقارنة أديب والطرف الآخر فنان، أو منتميا إلى أي نوع من أنواع النشاط الإنساني، ثم لا يشترط اختلاف اللغة بل اختلاف الثقافة.

2- الأدب العام والأدب المقارن:

ويأتي بعد ذلك إيف شوفرال ليقدم رأي آخر في مسألة مقارنة الآداب، ويقدم تعريفا للأدب المقارن:«**مسعى فكري يهدف إلى دراسة كل شيء يسمى أدبيا، وربطه بعناصر أخرى مكونة للثقافة**»[3]، فالمقارنة عنده ليست بالموازنة بين أدباء الثقافة الواحدة ككورناي وراسين أو بلزاك وزولا، هي ما يقارن الأدب بالأدب، أو بأي عنصر من عناصر الثقافة، ثم يضيف:« **مسعىdémarche نحو الآخر ودراسة للمسعى نحو الآخر..... وإدراك الأسباب التي تدفعه هو لاستساغة أو استهجان هذا الأثر أو ذاك**»[4]، فالأدب المقارن دعوة إلى الانفتاح على الآخر وعرفته، ثم تعريفه بالأنا وما يحصل بينهما من استحسان أو استهجان، لكنه في الأخير يقر بأن هذا الاصطلاح لم يعد كافيه.

ويقترح شوفرال ربط الأدب المقارن بالأدب العام ليصبح "**الأدب العام والمقارن**"، ويعرفه بـ: « **الفن المنهجي الذي يعمل، بواسطة البحث عن روابط الشبه والقرابة والتأثير، على تقريب الأدب من ميادين التعبير أو المعرفة**

- هلال(محمد غنيمي): الأدب المقارن، دار العودة بيروت لبنان، ط5، ص 1.9

2 -هنري باجو(دانييل): الأدب العام والمقارن، تر: السيد(غسان)، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق سوريا1997 ، ص 18.

-شوفرال(إيف): الأدب المقارن، تر: بوزيدة(عبد القادر)، دار التنوير الجزائر، ط1، 2017، ص 3.13

--شوفرال(إيف): الأدب المقارن، ص 4.14

الأخرى، أو الوقائع أو النصوص الأدبية من بعضها البعض، سواء أكانت متقارب في الزمان والمكان أو لا، شريطة أن تنتمي إلى لغات أو ثقافات عديدة»[1]، وهذا التعريف شامل يجمع بين روابط التأثير وروابط الشبه والتقارب –من صميم الأدب العام-، ويربط بين الأدب وميادين التعبير والمعرفة بروابط التأثير والتقارب، كما أنه يقرب الوقائع الأدبية بين مختلف اللغات والثقافات، لكن هذا القول يطرح التساؤل عن علاقة الأدب المقارن بمجموعة من المصطلحات المجاورة، منها الأدب العام والأدب العالمي والأدب القومي؟

وقد ظهر مصطلح "الأدب العام" في فترة متزامنة لظهور الأدب المقارن، ونظر له المقارنون الأوائل، لهذا كثير ما يخلط بين الاصطلاحين، فالمعنيين متقاربان، حتى أن بول فان تيغم[2] كان ممن وقعوا في فخ هذا الخلط:« **نجده يقصد بتعبير "أدب عام" دراسة الحركات والتقليعات الأدبية التي تتجاوز الحدود القومية، ويقصد بتعبير"أدب مقارن" العلاقات التي تربط مابين أدبين أو أكثر»**[3]، فخص الأدب المقارن بالدراسات الثنائية التي تربط الآداب ببعضها البعض: أديبين أو كتابين أو طائفتين أدبيتين، أما الأدب العام فحصه بدراسة الحركات الفنية والتيارات خارج حدود الأدب الواحد؟ ويبدو التشابه بل والتقاطع واضحا جدا لكن لكل مجال تميزه، ويتفق مع المصري أحمد درويش في تخصيص دراسات الأدب العام بأمور جزئية تكمل نظرية الأدب أو التاريخ الأدبي كالأجناس الأدبية:« **ليس تتبع تاريخ وخصائص المذاهب الأدبية، مثل الكلاسيكية والرومنتيكية والرمزية والطبيعية والواقعية وغيرها، وهي مذاهب نشأت وتطورت في كثير من الآداب في وقت واحد أو في أوقات متلاحقة، ليس هذا كله إلا جزء من مهمة الأدب العام»**[4]، ويبدو متأثرا بما سبقه إليه فان تيغم إذ جعل دراسة الأدب العام تخص الحركات الفنية المشتركة بين عدة آداب، ولن نقل الحركات والتيارات وبعض الظواهر كالأجناس الأدبية.

وقد خص الأمريكي سيمون جون الأدب العام في كتابه " الأدب العام والمقارن" بتعريفه يقصره على:« **ظواهر مشتركة ما بين عدة آداب»**[5]، أي الوقائع المشتركة بين الآداب وعلاقات التطابق بعيدا عن التأثير والتأثر، بغض النظر عن التاريخ الأدبي، فهو يتناول مسألة محددة في رقعة جغرافية محددة، في فترة تاريخية قصيرة، كقولنا: "ظاهرة الشك عند شعراء الصوفية" وتحولات هذه الظاهرة بين شاعر وشاعر هو موضوع في الأدب العام، أما إذا قلنا ظاهرة الشك بين أدباء الوجودية والأدباء العرب هنا يصبح الموضوع في إطار الأدب المقارن.

وعلى هذا فيمكن اعتباره مرحلة تمهيدية لدراسة الأدب المقارن، فهو يدرس ظواهر مشتركة في آداب عدة، لكن كل على حدا دون الدراسة الثانية المفضية إلى جدلية التأثير والتأثر، كما يمكن اعتباره مجال مكمل له فهو لا يلغي المقارنة لكنه لا يضعها هدفا منذ البداية، فظهور هذا المجال جاء أكمالا لمتطلبات الأدب المقارن وسدا لثغرات أغفلها كدراسات "التشابه والتوازي" بين الآداب والاشتراك في الشكل أو المضمون، وهي دراسات أهملها الأدب المقارن سابقا" في

- المرجع نفسه، ص 1.15

2 -في مقاله" التوليف في التاريخ الأدبي الأدب المقارن والأدب العام، نشر عام 1921 في مجلة التوليف التاريخي Synthese Listoirfue

3 -برونيل(بير)، وآخرون: ما الأدب المقارن؟، ص 172.

-درويش(أحمد):نظرية الأدب المقارن وتجلياتها في الأدب العربي، دار غريب للنشر والتوزيع القاهرة 2002، ص 4.7

- المرجع نفسه، ص 5.173

المدرسة الفرنسية" لعدم ثبوت علاقة التأثير والتأثر وعدم وجود الصلة التاريخية بين الآداب في مثل هذه الظواهر الأدبية.

3- الأدب القومي والأدب المقارن:

الأدب القومي وهو أدب أمة ما وشعب من الشعوب؛ يكتب بلغته ويعبر عن ثقافته وتراثه، فهو أدب محلي محدود بجغرافية معينة ولسان قومي ومجموعة بشرية ذات قواسم مشتركة، ويسمى كذلك "**الأدب الخاص**" :«**ويتناول نشاطا إقليميا ووطنيا خاصا لا يتعداه، يقوم على الإلمام باهتمامات، ورؤى جغرافية ومن هنا جاءت تسميات: الأدب الجزائري، الأدب المغربي...**»[1] ، وليس الأدب الخاص بأقل قدرا وقيمة من الأدب العالمي، لارتباطه بجماعة بشرية محددة وفضاء جغرافي محلي، فكل الآداب العالمية هي آداب خاصة عند شعوبها، وتجمعه بالأدب المقارن علاقة تكامل، فالأدب المقارن يدرس الآداب القومية الخارجة عن نطاقها اللغوي والجغرافي والثقافي، في علاقات التبادل والتأثير التي تجمعها، فالأدب القومي بهذا يشكل مادة للأدب المقارن، فهذا الأخير يدرس تاريخ الآداب القومية وتفاعلاتها الأدبية وغير الأدبية.

4-الأدب العالمي والأدب المقارن:

جاء في معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة:« **الأدب العالمي هو كل أدب خاص، استطاع اختراق حدوده الجغرافية والقومية ليعانق رؤى إنسانية تتسم بالشمولية**»[2]، ويتحدد مفهوم الأدب العالمي حسب القاموس الأدبي بالنماذج المختارة من الإبداع الإنساني، التي استطاعت مخاطبة قراء بعيدين عن لغتها وثقافتها، والسر في ذلك يعود إلى النزعة الإنسانية الشاملة المعبر بها. فهي آداب خاصة (قومية) تجاوزت حدود بلدها، وحققت النجاح خارج أطر شعبها ولغتها.

ونقترح توسيع المجال وتدقيق المفهوم فيما يخص الآداب العالمية لتشمل آداب العالم كله، مع توفر الخصائص الفنية والأدبية والإنسانية، بغض النظر عن اللغة والثقافة والعرق والموقع الجغرافي، بعد اختراق حد اللغة الوطنية والحيز الإقليمي، وهذا ترسيخا للفكرة العولمية عن الأدب العالمي، وتعزيزا لمعرفة الآخر الذي أصبح جارا قريبا في هذه القرية الكونية.

ويجر النقاش حول الأدب العالمي إلى الرفيق الدائم له، وهو الأدب المقارن littérature compareé، الذي قلنا أنه المجال من الدراسات الذي يهتم بالعلاقات بين الآداب المختلفة اللغة والقومية، من تأثير وتأثر ومبادلات أدبية، تتحدد من خلالها أصالة العمل الأدبي المرسل بقدرته في التأثير في غيره من الآداب، وجودة العمل المستقبل بخصوبته في اكتساب عناصر جديدة، وإبداعيته في التأثر والإتيان بالجديد بعد ذلك، وتحكم هذه المبادلات بالعلاقة التاريخية

1 -علوش(سعيد): معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني بيروت، سوشبريس الدار البيضاء، ط1، 1985.

2 -علوش(سعيد): معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني بيروت، سوشبريس الدار البيضاء، ط1، 1985.

والتاريخ الأدبي والحدود اللغوية والثقافية، فالأدب المقارن في جزء منه يتناول نصوص من الأدب العالمي، أليس التأثير في الأدب الآخر خروجا من الحيز الثقافي واللغوي القومي؟.

وفي العلاقة بين الاثنين قيل:«**الأدب المقارن والأدب العالمي كانا باستمرار توأمين سياميين لكل مقارني الدرس المقارن في الغرب.....تناولت الجوانب المختلفة لهذه العملية الدقيقة التي تقوم على مسعى جاد لفهم"الآخر" من خلال فهم أدبه المغمس بثقافته ومواريثه**»[1]، وكان للأدب المقارن الفضل في تطور هذا المفهوم الذي ولد من رحمه، دون أن ننسى أنه ظهر في ألمانيا أول مرة مع يوهان فولفغانغ غوته عام 1827، لكن الفكرة لم تتطور إلا مع المقارنيين الفرنسيين، حيث استقبل الأدب المقارن في فرنسا هذا المفهوم بترحاب كبير، لأنه يخدم توجهاته الداعية إلى الانفتاح والخروج من الانعزالية إلى مجال الآداب الغيرية والأجنبية، ويرى هذا في محاضرات أبال فيلمانAppel Vielleman، في طرحه حول الأدب الفرنسي وعلاقته بالآداب الأوروبية[2]، ويرى كذلك في مساعي ممثلي الاتجاه الفرنسي بعالمية الأدب وعواملها وسبل تحقيقها عبر الوسائط العديدة.

انتقد الأدب المقارن كثيرا لتبنيه نموذج مركزيا يلغي الأدب الآخر:« **لا يفسح المجال واسعا إلا للقوي والغني من الأمم، حتى عندما تنبه إلى ضرورة الالتفات إلى الشرق الآسيوي الناهض، الذي بدأ ينافس الغرب في قوته وغناه، فانه انحاز إلى الأمم الأقوى والأغنى في هذه الأمم(اليابان، الصين، والهند)، واغفل أمما ضعيفة وفقيرة**»[3]، وهنا ننتبه إلى ازدواجية المعايير الفنية والأدبية وحتى الإنسانية، واختلالها عند المقارنين، وهذا ما يجب أن يتجنبه الدارس في عصر التعدد الثقافي"تجنب المركزية" في النظر إلى الأدب القومي، وفي تحديد الأدب الآخر-بعدم قصره على اليابان والهند والصين-، وهذا يتماشي مع توجه حديث-تسعينيات القرن الماضي- بدأ في التوسع يؤشر إيجابيا إلى تعزيز حضور الآداب الإفريقية والشرقية والعربية في متن الأدب العالمي ودراسات الأدب المقارن، ويحدد الدراسة المقارنة بأنها دراسة للأدب من منظور عالمي.

[1] -اصطيف(عبد النبي): ديفيد دمروش واسهامه في نظرية الأدب العالمي، الآداب العالمية اتحاد الكتاب العرب دمشق، العدد 11 السنة الخامسة والأربعون، ربيع 2020، ص27.

2 -برونيل(بيار)وآخرون: ما الأدب المقارن؟،ص 128.

[3] -اصطيف(عبد النبي): دائرة الأدب العالمي دائرة غربية يحكمها مجلس أمن غربي، ص32.